



مكسيم رودنسون المستعرب العقلاني والصديق النقدي

برحيل مكسيم رودنسون امس عن عمر قارب التسعين، فقد العرب أحد اكبر عارفيهم في الغرب، وواحداً من عمالقة الاستشراق في القرن العشرين.

لكن رودنسون لم يكن مستشرقاً عادياً. منذ بداياته فضل ان يعرف عن نفسه بكلمة "مستعرب"، ثم كان على الأرجح اول من اخضع الاستشراق الكلاسيكي للتحليل النقدي، قبل ان يعطي ادوارد سعيد رواجه الى هذا النقد في كتابه الشهير الذي استثنى رودنسون، بين قلة استثناهم، من تهمة الاستشراق الاستعماري.

والحق ان رودنسون لا يمكن بحال من الاحوال ان تنطبق عليه شبهة المستعمر. وقد كان يعرفه الناشرون، في النبذة المخصصة للمؤلف على الغلاف الخلفي لكتبه، بصفة "المناضل ضد الاستعمار". ولعل هذا الوعي السياسي الذي دفعه للانتماء الى الحزب الشيوعي ثم الخروج منه، قبل ان يوظفه في الدفاع عن القضية الفلسطينية، هو ما جعل رودنسون عالماً على حدة، حتى نسي الكثير من قراء كتبه انهم بازاء عالم من الطراز الذي لم تعد تخرج منه الجامعات، عالم يستطيع ان يتدبر امره في نحو ثلاثين لغة حية او ميتة، وان يكتب المئات من المقالات المتخصصة في مواضيع دقيقة مثل الوثائق العربية عن الطبخ، او صورة القمر عند العرب او الطب والاقتصاد والسحر والعنصرية الخ...

على حدة في العالم الجامعي كان رودنسون منذ نشأته. فهو لم يحصل على البكالوريا، ولم ينل الدكتوراه الا في عمر الـ ٥٥ (وبفضل تغيير في نظام الشهادات الفرنسية اثر ثورة ايار ١٩٦٨)، ولكن بعدما اشرف على تدريب الكثير من الباحثين الذين سبقوه الى "الدكترة".

ولد مكسيم رودنسون في باريس عام ١٩١٥ من والدين جاءا حديثاً من روسيا، وترعرع في جو عائلي بروليتاري غلب عليه الفكر الاشتراكي ومن ثم الشيوعي، فمحا آثار الانتماء اليهودي. وكادت هذه الاصول المتواضعة ان تطيح شغفه بالعلم، فلم يكتب له الدخول الى المدرسة الثانوية، واضطر الى العمل باكراً بوظيفة حاجب. لكن فضوله العلمي، الذي كان يحاول ان يرويه في المكتبات المحيطة بقصر اللوفر، عاد واخرجه من هذه الحال، فتقدم الى امتحان مدرسة اللغات الشرقية الذي لم يكن مشروطاً بحيازة البكالوريا، ونجح فيه، فحصل على شهادة في اللغة التركية عام ١٩٣٥، وفي العام التالي على شهادات في اللغة العربية الفصحى واللهجتين المغربية والمشرقية، فشهادة في اللغة الحبشية التي سوف تصبح في ما بعد مصدر رزقه الجامعي. وبخروجه في مدرسة اللغات الشرقية، بات جاهزاً للخيارات الكبرى التي ستطبع حياته كلها، فقرر اخيراً الانتماء الى الحزب الشيوعي بعد رفض مديد لاعتناقه عقيدة الاهل. وعند اندلاع الحرب، طلب المجنّد رودنسون الالتحاق بالجيش الفرنسي في الشرق، فكان لبنان مسرحاً لاول لقاء له بالعالم العربي.

وبعد تسريحه من الجيش ابان الهزيمة الفرنسية، فضل المكوث في لبنان، حيث درس الفرنسية في مدرسة تابعة لجمعية المقاصد في صيدا (ليت البلدية الجديدة في صيدا تظن الى الامر فتطلق اسم رودنسون على احد شوارع المدينة). وفي لبنان ايضاً، كانت له اول لقاءات مع الشيوعيين العرب، وصادق منهم انطون ثابت. وحين كلفته دائرة الآثار مهمة اقتناء الكتب القديمة في بلدان الشرق



الايواسط، استفاد من سفراته لتوسيع اتصالاته مع الاواسط الشيوعية العربية في فلسطين ومصر والعراق. وكانت هذه التجربة الأساسية في بلورة المقالات التي جمعها لاحقاً في كتابه "الماركسية والعالم الاسلامي"، كما ظلت حية في ذهنه حتى آخر حياته، اذ لم يكن نادراً ان يستذكر امام اصدقائه من اليساريين العرب اناشيد الحزب الشيوعي اللبناني والسوري.

بعد عودته الى فرنسا عام ١٩٤٧ عمل في المكتبة الوطنية، في دائرة المخطوطات العربية، قبل ان يخلف استاذة مارسيل كوهين في تعليم الحبشية في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا عام ١٩٥٥ وبين ١٩٥٩ و١٩٧١، تولى ايضاً لقاء محاضرات في الانتوغرافيا التاريخية للشرق الاوسط في الدائرة السادسة من هذه المدرسة، وهي الدائرة التي ستصبح لاحقاً مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية، واجهة علم الاجتماع الفرنسي. لكنه فضل في ما بعد الاكتفاء بتعليم الحبشية، توفيراً للوقت المخصص للبحث.

باكورة اعماله العلمية كانت عام ١٩٤٩ مقالة حول عدد من المخطوطات العربية المتعلقة بفن الطبخ. وقد ظل لنحو اربعة عقود ينسج الابحاث في مجالات مشابهة ومتخصصة جداً، فحصل ثقافة قلّ نظيرها. الا ان انشغاله في البحث العلمي المتخصص لم يمنعه من مقاربة المواضيع الاكثر شمولاً في كتب موجهة الى الجمهور المثقف العريض، وكان ابرزها سيرة النبي محمد الصادرة عام ١٩٦١ و"الاسلام والرأسمالية"، بالاضافة الى مجموعة مقالاته في "الماركسية والعالم الاسلامي".

ولم يتأخر في مقاربة الصراع العربي - الاسرائيلي في زمن كان من الصعب جداً فيه مقاومة طغيان الدعاية الصهيونية في فرنسا. وجاءت اولى مساهماته في العدد الخاص الذي خصصته "الازمنة الحديثة"، مجلة جان بول سارتر، للصراع العربي - الاسرائيلي، عشية حرب ١٩٦٧ وحملت هذه المساهمة الطويلة عنوان "اسرائيل، فعل كولونيالي؟"، وشكلت هذه ولا تزال احد اهم المراجع حول تشكل المشروع الصهيوني. وفي العام التالي، اعاد رودنسون الكرة في كتابه "اسرائيل والرفض العربي" الذي كان المحاولة الأولى من كاتب فرنسي لايفاء العرب حقهم في صراعهم مع اسرائيل وشرح مواقفهم من الصهيونية منذ ظهورها.

لكن مشاركة رودنسون في النقاش حول فلسطين كانت ايضاً مناسبة ليتعرف فيها العرب على كاتب من اصل يهودي يناهض اسرائيل. ولعل رودنسون قد يكون بذلك اكثر من ساعد على التمييز بين اليهودية والصهيونية، ولا سيما انه لم يتراجع يوماً في موقفه النقدي من اسرائيل، كما يمكن تبين ذلك من المقالات التي جمعها في كتاب حمل عنواناً مثيراً: "شعب يهودي ام مشكلة يهودية؟"، كما كان من الذين احتضنوا تجربة "مجلة الدراسات الفلسطينية" الصادرة بالفرنسية عام ١٩٨١ فكتب في عددها الاول وحرص على الاطلالة فيها بشكل شبيه منتظم. لكن انحيازه الى الحق الفلسطيني، على اهميته، لا يختزل حضور رودنسون بالنسبة الى الجامعيين والمثقفين العرب الذين مروا في باريس، والكثير منهم عرفوه مشرفاً على اطروحتهم او عضواً في اللجنة التي مثلوا امامها لنيل الدكتوراه.

ومثلما كان حذراً ممن يسميهم "الماركسيين الميكانيكيين" ومن التنديد العشوائي بالامبريالية، مذكراً على الدوام بانه يجب وصفها (بالاميركية او الفرنسية او السوفياتية الخ...)، كان ايضاً حريصاً على عدم التملق امام العرب. فلم يُعرف عنه يوماً انه صادق الطغاة، ولا انه قصد السفارات. والاهم انه لم يتهاون مع اصدقائه، سواء أكانوا طلاباً أم زملاء، في اطلاق الاحكام الايجابية المسبقة على الحضارة العربية. فظل ينتقد العرب حيث يلزم الانتقاد. وبخلاف بعض زملائه الفرنسيين، لم ينحُ الى اعطاء الاسلام مرتبة اسمى من غيره من الاديان، بل قاربه بالعقلانية نفسها التي قارب بها النظم الايديولوجية الاخرى.



العقلانية والحس النقدي والاولوية المعطاة الى العناصر المادية، تلك كانت الخصال التي ادخلت مكسيم رودنسون الحزب الشيوعي ثم اخرجته منه. تلك هي خصوصاً الخصال التي جبلت جيلاً كاملاً من الباحثين العرب كتب لهم ان يعايشوا رجلاً كان له اكبر الاثر في تغيير النظرة الى تاريخ العرب وحاضرهم.

سمير قصير



| | | |
|---------------------|---------------------|--|
| Id-Reference | 04-Pr-000639 | |
| Media | (Support) | HC |
| Title | | مكسيم رودنسون المستعرب العقلاني والصديق النقدي |
| Subtitle | | |
| Section | | |
| Language | | عربي |
| Source | | النهار |
| Page | | |
| Date | | ٢٠٠٤/٥/٢٥ 25/5/2004 |
| Author | | سمير قصير |
| Co-Author | | |
| Keywords | | |
| | Persons | مكسيم رودنسون - ادوارد سعيد - انطون تابت - مارسيل كوهين - جان بول سارتر |
| | Locations | شرق اوسط - لبنان - فلسطين - مصر - عراق - فرنسا - روسيا |
| | Dates | ثورة ايار ١٩٦٨ - ١٩١٥ - ١٩٣٥ - ١٩٦١ - ١٩٤٩ - ١٩٧١ - ١٩٥٩ - ١٩٥٥ - ١٩٤٧ - ١٩٦٧ - ١٩٨١ |
| | Themes | شرق اوسط - مكسيم رودنسون - كتاب "ماركسية عالم اسلامي" - مستشرق - عرب - استشراق - لغة حبشية - كتاب "اسلام رأسمالية" - مستعرب - استعمار - حزب شيوعي - عرب اسرائيل صراع - دعاية صهيونية - قضية فلسطينية - ثورة ١٩٦٨ - لغة تركية - لغة عربية فصحي - حرب ١٩٦٧ - اسرائيل - كتاب "اسرائيل رفض عربي" - فلسطين - كتاب "شعب يهودي أم مشكلة يهودية" |
| Subject | | |